بين مدرستي البصرة والكوفة

ملحـوظة:

لما كان الحديث عن المدارس النحوية من اهتمام (تاريخ النحو) ولما كانت القضايا التاريخيه لا خلاف عليها، وكان موضوع الكتاب عن الخلافات بين مدرستي (البصرة والكوفة) كانت الحاجة ماسة لتلك المقدمة التاريخية، التي نقلت من كتابات الاخرين (المواقع الالكترونية) لذا وجب التنويه.

مصادر وخصائص وسمات كل مدرسة

مدرسة البصرة النحوية

(منهج دراستهم – مصادرها – موقفهم من مخالفيهم)

القسم الأول: منهج الدراسة عند البصريين:

إن البصريين كانوا أكثر حرية و أقوى عقلا و طريقتهم أكثر تنظيما، و خطتهم هي الاعتماد على الشواهد الموثوق بها، الكثيرة الدوران على السنة العرب التي تصلح للثقة فيها أن تكون قاعدة تتبع. ولن يكون ذلك إلا إذا وردت في كتاب الله الكريم أو نطق بها العرب الخلص الذين اعترف لهم بالفصاحة لبعدهم عن مظنة الخطاء، كالاتصال بالأعاجم سواء بالرحلة أو الجوار، أو لرسوخ قدمهم في اللغة و تبصرهم بها، و اطلاعهم عليها ككبار العلماء و الأدباء، هؤلاء الذين يمكن أن توضع أقوالهم موضع الاعتبار. لذلك لم يكن بدعا أن ترى السيوطي يقول «اتفقوا على أن البصريين أصح قياسا، لأنهم لا يلتفتون إلى كل مسموع و لا يقيسون على الشاذ». في الحقيقة نحاة البصرة تأثروا بالبيئة البصرية و نهج المعتزلة و تأثروا بهم في الاعتداد بالعقل و طرح كل ما يتعارض معه ،فأهملوا الشواذ في اللغة ،لهذا سمى نحاة البصرة أهل المنطق.

ومن الأمور التي تراعيها مدرسة البصرة في بحثها الآتي:

أولا : المادة العلمية

– اعتمد البصريون في مادة منهجهم العلمي على الأفصح من الألفاظ والأسهل منها على اللسان ولذلك اختاروا من بين القبائل التي اعتمدوا عليها القبائل المقطوع بعراقتها في العربية، والمصونة فطرتهم من رطانة الحضارة الأجنبية فاختاروا من العرب (قيسا وتميما وأسدا)، فأخذوا أكثر قواعدهم من هؤلاء في اللغة والإعراب والتصريف ثم اخذوا من (هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين) ولم يأخذوا عن حضري ولا من سكان البراري ممن كان يجاور الأمم الأخرى ومن هنا رفضوا الأخذ من (لخم وجذام) لمجاورتهم أهل مصر، ولم يأخذوا من (قضاعة) ولا من (غسان) ولا من (إياد) لمجاورتهم أهل الشام، ولا من(النمر) لمجاورتهم اليونان، ولا من(بكر) لمجاورتهم النبط والفرس. .

ثانيا: اختيار سلامة لغة المأخوذ عنهم

كان البصريون يختبرون سلامة لغة منْ يشكون في أمره، ممن سبق من القبائل الفصيحة ويروي (ابن جني) في ذلك فيقول: ومن ذلك ما يحكي أن أبا عمرو بن العلاء استضعف فصاحة أعرابي يسمى : أبا خيرة، لّما سأله فقال: كيف تقول : استأصل الله عرقاتهن ؟ ففتح أبو خيرة التاء من عرقاتهن فقال له أبو عمرو : هيهات أبا خيرة (لان جلدك) وهذا يعني أن اللحن أو ما يشبه ذلك روى إلى الأعراب، لأن أبا عمرو كان قد سمع أبا خيرة يروي الشاهد بالكسر، فلم يتردد في مؤاخذة أبي خيرة، وهو أحد الأعراب الذين أخذت عنهم اللغة، باللحن وذلك لتقدمه في السن وطول مخالطته لأهل الحواضر.

ثالثا: التأكد من الثقات في صحة المروي

كان البصريون يتحرون عن الرواة فلا يأخذون إلا برواية الثقات الذين سمعوا اللغة من الفصحاء عن طريق الحفظة والأثبات الذين بذلوا الجهد في نقل المرويات عن قائليها منسوبة إليهم فقد أبوا أن يستدلوا بشاهد لم يعرف قائله (وفيه نظر).

رابعا: كمية المقيس عليه المنقول عند العرب

اشترط البصريون فيما ينقل عن العرب الكثرة الكاثرة فيقعدون على الأكثر وإلا فعلى الكثير، وإلا فعلى القليل، وإلا فعلى الأقل، وإلا فعلى النادر، وإلا قاسوا الأشباه على الأشباه، والنظائر على النظائر إذا لم يتناقص مع الوارد ولذا اعتبر سيبويه قياس فعولة بفعيلة في النسب إليها بحذف حرف المد وقلب الضمة فتحة وإن لم يرد منها إلا (شنيء في النسب إلى شنوءه) لأنه لم يرد ما يخالفها فإذا ما خالف الوارد ما سبق من قياس أولوه أو اعتبروه شادا يحفظ ولا يقاس عليه وقد ينكرونه أو يقولون إنه ضرورة.

القسم الثاني : مصادر الدراسة عند البصريين

اعتمد البصريون في دراستهم طائفة من المصادر وهي:

القرآن الكريم

أقام البصريون نحوهم على القرآن الكريم حيث كانوا يستشهدون في كثيرمن المسائل بآيات من القرآن الكريم، فكان القرآن أحد مصادرهم المهمة والأساسية.

الشعر العربي

اعتمد البصريون الشعر العربي أصلا من أصولهم في الاستشهاد على صحة المسألة، كما اعتمدوا على الشعر الإسلامي فاستشهدوا في نحوهم بشعر الفرزدق وجرير وأراجيز العجاج ورؤبة وأبي النجم وفي بعض الأحيان يتجاوزون الحقبة التي وقفوا عندها في استشهادهم فقد جاء (الاقتراح) للسيوطي فيما رواه ثعلب عن الأصمعي : أن إبراهيم بن هرمة أخر من يحتج به، ومن المعلوم أن ابن هرمة هذا قد ولد سنة تسعين للهجرة وعمّر طويلا حتى تجاوز منتصف القرن الثاني . كما أن أوائل البصريين قد اطمأنوا إلى سلامة لغة جماعة من العلماء ممن ينتمون إلى أصول غير عربية، فقد جاء أبا عمرو بن العلاء قد قال في الحسن البصري: «ما رأيت أفصح من الحسن البصري والحجاج بن يوسف الثقفي ، فقيل له: فأيهما أفصح فقال الحسن» وقد أشار الجاحظ إلى أن هذا ، وذهب إلى أن هؤلاء الفصحاء الذين ينتمون إلى أصل غير عربي أبو علي الأسواري ، وعمرو بن فائد الذي جلس يعظ في مسجده نحو ست وثلاثين سنة وقد كان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ويحتج به، إذن يمكننا القول إن المادة التي احتج بها البصريون في وضع أصول العربية هي:

لغة التنزيل والشعر العربي القديم (جاهليّ وإسلاميّ) وما أثر من الأمثال الجاهلية. .

القسم الثالث : موقف البصريين ممن خالف قواعدهم

أولاً : موقفهم ممن خالف قواعدهم في القراءات القرآنية

اعتمد البصريون لغة التنزيل، ولكنهم ضيقوا في هذا أشد الضيق، فلم يأخذوا بقراءات عدة وهي شيء من العربية، ولها أساس في لغة العرب، فقد حملوا على الخطأ

أ – قراءة عبد الله بن عامر مقرئ أهل الشام في قوله تعالى: «وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم» بنصب «أولادهم» وجر«شركائهم» والخطأ المزعوم في هذا أنهم يمنعون الفصل بين المتضايفين في غير ضرورة الشعرفلم يقبلوا قراءة ابن عامر مع علمهم أن للقراءة سندا متصلا وأن القراءات السبع مما يجب أن يؤخذ به وهي حجة قائمة.

ب – تخطئتهم قراءة نافع لقوله تعال «لهم فيها معائش» بالهمز في معائش وحجتهم في التخطئة أن الياء في«معايش»أصلية لأنها من المد في «معيشة» والمد الأصلي لا يبدل همزة.

ج– وهذا عبد الله بن أبي إسحاق (ت ١١٧ هـ) يخالف جمهور القراء تمسكا بالقياس النحوي من أن كان يخالفهم في قراءة قوله تعالي «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما» فقد كانوا يقرؤون: «والسارقُ والسارقةُ» بالرفع على الابتداء بينما الخبر فعل أمر وجعله ذلك يقرؤهما بالنصب على المفعولية.

د – كما كانوا لا يكترثون بالقراءات التي تخالف قواعدهم ،وكأنها من ابتداع القراء وليس لها من سند يوصلها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهي قراءات مشهورة مع اتصال سندها فقد ذهبوا على تخطئة قراءة حمزة مقرئ أهل الكوفة لقوله تعالى «واتقوا الله الذي تساءلون بن والأرحام» بجر «الأرحام» وهي قراءة مشهورة وهي إحدى القراءات السبع المعروفة ووجه التخطئة أنهم لا يجيزون العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار ما عدا ما ورد من ذلك ضرورة وقراءة حمزة هذه قد قرأ بها ابن العباس والحسن البصري وهي قراءة متصلة السند.

ثانيا : موقفهم ممنْ خالف قواعدهم في الشعر

بلغ من تقديس البصريين لقواعدهم أن خطئوا كثيرا من الشعراء وقد ظهر هذا في عهد الطبقة الثانية على يد (عبد الله بن أبي إسحاق) فقد اعترض على (الفرزدق) حين سمعه ينشد قوله في مديحه لبعض بني مروان :

وعض زمان يا بن مروان لم يدع من المال إلا مسحتاً أو مجرفُ

اعترضه لرفعه قافية البيت وكان حقها النصب لأنها معطوفة – كما يتبادر – على كلمة «مسحتا» المنصوبة أو بعبارة أدق لأن القياس النحوي يحتم دلك ويوجبه وما خالف دلك فهو خطأ وانحراف عن القواعد،

وقد بلغ الأمر بالبصريين أن يخطئوا الشعراء الفصحاء من الجاهليين إذ ألفوا القياس :

من ذلك تخطئة عيسى بن عمر الثقفي للنابغة في قوله :

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقعُ

حيث قال عيسى بن عمر أساء النابغة إنما هو «ناقعاً» إذ جعل القافية مرفوعة وحقها أن تنصب على الحال لأن المبتدأ قبلها تقدمه الخبر وهو الجار والمجرور وكان النابغة ألغاهما لتقدمهما وجعل» ناقعا» الخبر.

وهذا أبو عمرو بن العلاء الذي يقال عنه إنه كان يتورع عن تخطئة العربي، فها هو يخطئ ذا الرمة في قوله :

حراجيج ما تنفك إلا مناخة على الخسف أو ترمي بها بلدا قفرا .

وذلك لأنهم قالوا : إن أفعال الاستمرار بمعنى الإيجاب فلا يصح الاستثناء من خبرها... وقد ضاق الشعراء بهذا المنهج فهجوا النحاة.

يقول عطية بن الأسود الكلبي عن النحاة حينما عيب عليه بيت من الشعر:

ما ذا لقيت من المستعربين ومن قياس نحوهم هذا الذي ابتدعوا

على أن تخطئة الأقحاح فيما خالف قواعد البصريين لم تكن من كل علماء البصرة بل من بعضهم (كعيسى بن عمر) وشيخه (عبد الله بن إسحاق) من متقدمي البصريين دون غيرهما – غالبا– من معاصريهما – فهذا (يونس بن حبيب) وشيخه (أبو عمرو بن العلاء) كانا يتحرزان عن تخطئة العربي ويعتمدان قوله ويعتبرانه شاذ في القياس فصيح في الاستعمال لكن البصريين المتأخرين بعد سيبويه اتخذوا موقف عيسى بن عمرو أبي إسحاق لهم منهجا في الوقت الذي اتخذ الكوفيون فيه موقف يونس وأبي عمرو لهم مذهبا .[1]

مدرسة الكوفة النحوية

تسمية الكوفيين بهذا الاسم:

اتّفق القدماء والمحدثون على أنّ الدرس النحوي بمعناه الاصطلاحي بدأ في البصرة، ثم انتقل إلى الكوفة وكان الاتصال بينهما قائما كرحلة الرؤاسي والكسائي والفرّاء إليها؛ للأخذ عن شيوخها، ويبدو أنّ البصريين القدماء أطلقوا على رجال النحو الكوفي تسمية (الكوفيين) لتمييزهم من البصريين، إلاّ أنّ الدكتور مهدي المخزومي يرى «أنّ اسم الكوفيين لم يُعرف إلاّ في القرن الرابع، وأنّ الكوفية اسم اخترعه البغداديون الذين أخذوا بمذهب البصريين، وسمّوا أنفسهم بالبصريين تمييزا لأنفسهم عن مخالفيهم من البغداديين الذين أخذوا بمذهب البغداديين الأوائل»[1]، وزاد قائلا : «وأما الكسائي والفرّاء وثعلب وأصحابهم وتلاميذهم فلم يسمّوا بالكوفيين، ولم يسمّوا هم أنفسهم بهذا الاسم، ولم يسمّهم البصريون الأوائل به أيضا، لأنّ الكوفة، مصرا، لم تعرف درسا نحويا مستقلا يقف بإزاء الدرس البصري»[2]، وعلّل ذكر المبرّد (الكوفيين) في المقتضب[3] مرة واحدة، بأنّ «ورود اسم الكوفيين مرّة واحدة في كتابه لا يعني أنّه كان يعرف هذه التسمية، فقد يُحمل على أنّه تصرف من النسّاخ أو من بعض التلاميذ الذين شاعت بينهم هذه التسمية»[4]، وقد أوردت الدكتورة خديجة الحديثي زَعْمَ الدكتور مهدي المخزومي ولم تعلّق عليه[5]،

---

١) من المراجع في هذا الموضوع :
١- طبقات الزبيدي ص ٣٥ : ٣٧١-
٢- أخبار النحويين البصرين ص ٢٣ : ٣٥٢-
٣- ضحى الإسلام – أحمد أمين
٤-المدارس النحوية – شوقي ضيف.
٥- الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبوية – خديجة الحديثيّ

ولا أدري كيف يفسّر ذكر سيبويه لهم ثلاث مرات في القراءات ورابعة في مسألة صرفية مسمّيا إيّاهم مرّتين (أهل الكوفة) [٦] ومرتين (الكوفيين) [٧]، إذ قال: «ولا ينبغي أنْ يكون في قول الكوفيين إلاّ فَيْعِلا مكسور العين؛ لأنّهم يزعمون أنّه فيعل، وأنّه محدود عن أصله»[٨]، وهذا يؤكّد أنّ هذا المصطلح استخدمه النحويون البصريون قبل المبرّد، وأنّ الكوفة عرفت النحو والصرف قبل الكسائي والفرّاء، والآراء المبثوثة في مظانّ النحو واللغة لنحاة الكوفة قبل الكسائي تُظهر بوضوح أنّ الرؤاسي راسم ملامح المنهج الكوفي قبل الكسائي[٩]، فمنهجه «كان يقوم على مزج اللغة بالنحو، وأنّه كان يعالج اللغة على وفق منهج وصفي، وقلّ أنْ يخضعه لمنطق القياس والتعليل. . . وهو منهج القراء الذين كانوا يقيمونه على الرواية والسند الصحيح، ويعتمد النقل ويجانب الفلسفات الكلامية»[١٠]، وينفي هذا ما ذهب إليه الآخرون [١١].

أهم مميزات المذهب الكوفيّ

أخذ شيوخ المدرسة الكوفية لا سيّما الرؤاسي والكسائي والفرّاء عن البصريين، وقد رأى (جوتولد فايل) أنّ يونس صاحب التأثير في نحاة الكوفة[١٢]، وعدّ (أحمد أمين) المنهج الكوفي امتدادا لمنهج أبي عمرو بن العلاء وتلميذه يونس بن حبيب في تعظيمهما لكلام العرب، وتحرّجهما من تخطئتهم[١٣]، وذهب الدكتور (أحمد مكي الأنصاري) إلى أنّ الفرّاء امتداد لأبي زيد الأنصاري ويونس وعيسى بن عمر الثقفي، «فتأثير يونس على الفرّاء في النحو بالذات كان أوضح من تأثير الكسائي»[١٤]، ومذهب الكوفيين عند (بروكلمان) هو «المتّجه إلى واقع الاستعمال اللغوي، والموّجه عناية خاصة إلى فروق اللغة، وتعبيرات أهل البادية في أشعار الجاهلية ونحوها، وما يتطلّبه سبر أغوار ذلك من تتبع واستقراء عمليين»[١٥]، فالكوفيون عند هؤلاء احترموا كلّ ما جاء عن العرب، وحرّروا الاستعمال اللغوي من سطوة القواعد العامة الموضوعة.

ويمكننا أنْ نلخص الميزات التي أراد الكوفيون أنْ يتفرّد بها منهجهم بما يأتي

١- اتّساع دائرة المسموع فلم يقصروا الأخذ عن فصحاء الأعراب بل شمل ذلك الأعراب الذين استوطنوا حواضر العراق (الكوفة، وبغداد) قال الرياشي مفاخرا نحاة الكوفة : «إنما أخذنا اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع، وهؤلاء أخذوا اللغة عن أهل السواد، أكلة الكواميخ والشواريز» [١٦]، والبصريون عند الأستاذ (سعيد الأفغاني) «عنوا بالسماع فحرّروه وضبطوه واحترموه على حين زيّفه الكوفيون وبلبلوه»[١٧]؛ فقد سمع الكوفيون من أعراب بغداد والكوفة، ولم يحدّدوا شروطا في المسموع عنه، وبالغ (طه الراوي) بقوله: «أمّا مذهب الكوفيين فلواؤه بيد السماع، لا يخفر له ذمة، ولا ينقض

له عهدا، ويهون على الكوفي نقض أصل من أصوله أو نسف قاعدة من قواعده، ولا يهون عليه إطراح المسموع على الأكثر»[١٨].

٢- التوسّع في القياس بعد أنْ حرّروا السماع واعتمدوا من الشعر والقراءات وقول العرب أساسا لاستقراء قاعدة عامة، بل وضعوه بلا سند مسموع ومنه - على سبيل المثال لا الحصر:

أ- قياسهم العطف بـ (لكن) في الإيجاب على العطف بـ(بل).

ب- رفض السماع وما يبنى عليه من قواعد كرفضهم إعمال صيغة المبالغة، وإعمال (إنْ) المخففة من الثقيلة [١٩].

ج- ذهب الفرّاء إلى أبعد من البصريين في منهجهم بقوله بقياسية مصدر الثلاثي قياسا مطّردا، والبصريون يقولون بالسماع.[٢٠]

ومن ذلك : جمعهم العلم المختوم بألف وتاء بالواو والنون قياسا على جمعهم المختوم بألف التأنيث بالواو والنون إذا سُمّي به مذكر، إذ لم يجدوا أمامهم غير جمع التكسير للاستدلال به متغافلين عن الفرق بينهما.

د- منعهم تقدم الخبر على المبتدأ حتى لا يعود الخبر على الاسم المتأخر وإهمالهم المسموع الذي يبيح التقديم[٢١] «كأنما حجبهم التعليل المنطقي الخالص عن منطق اللغة وتصاريف عباراتها الفصيحة السليمة. وفي هذا ونحوه ما يردّ أقوى ردّ على من يزعمون أنّ الكوفيين كانوا أكثر بصرا بروح اللغة وأدقّ حسّا وأنهم لم يخضعوا ـ مثل البصريين ـ للمنطق والفلسفة. . . بل ربّما زادوا عنهم خضوعا»[٢٢].

- وهذا الدكتور مهدي المخزومي يؤكّد أنّ «الفراء من المتكلمين، وكان ينحو في مصنفاته منحى الفلاسفة، كما قيل عنه، وقد ترك ذلك في نحوه ظلا واضح المعالم، تمثّل في تعليله القضايا النحويّة وفلسفة الأحكام، بمثل ما كان البصريون يعلّلون ويفلسفون»[٢٣]، ثمّ لخص مهدي المخزومي سمات المنهج الكوفي فيما يأتي:

١- التحرّر من ربقة تحكيم العقل في الدرس اللغوي وإضافة قيمة اعتباريه له .

٢- التجديد في أسلوبه برفض التعليلات التي ليس لها صلة به.

٣- تغليب النقل على القياس، وتحكيم الاعتبارات اللغوية في أصوله وقواعده التي لم يعهدها الدرس البصري[٢٤]، وقد لاحظنا قبل هذا أنّ الكوفيين ابتداء بالفرّاء قد اعتمدوا

المنطق والكلام في الحجاج، وقد قال الزجّاجي عند ذكر حجج البصريين والكوفيين : «إنما نذكر هذه الأجوبة عن الكوفيين، على حسب ما سمعنا مما يحتج به عنهم من ينصر مذهبهم من المتأخرين، وعلى حسب ما في كتبهم إلاّ أنّ العبارة عن ذلك بغير ألفاظهم، والمعنى واحد، لأنّا لو تكلفنا حكاية ألفاظهم بأعيانها لكان في نقل ذلك مشقّة علينا من غير زيادة في الفائدة، بل لعلّ أكثر ألفاظهم لا يفهمها من لم ينظر في كتبهم، وكثير من ألفاظهم قد هذّبها من نحكي عنه مذهب الكوفيين، مثل ابن كيسان وابن شقير وابن الخياط وابن الأنباري، فنحن نحكي علل الكوفيين على ألفاظ هؤلاء ومن جرى مجراهم»(٢٥). وهذا النصّ يدلّل على مجانبة (فايل) الصواب فيما ذهب إليه من أنّ أبا البركات الأنباري نقل حجاج الكوفيين على لسان البصريين، فقد نقل الزجّاجي من كتب الكوفيين، والقسم الآخر عن هؤلاء النحاة الأربعة وهم بغداديون مع ميل إلى المذهب الكوفي، ويؤكّد ذلك ورود اسم (المبرد) في الحجاج الذي ورد في المسألة السابعة والتسعين في حديثه عن موضع الضمائر المتصلة بـ (لولا) «الوجه الثاني أنّ الكاف في موضع نصب بعسى، وأنّ اسمها مضمر فيها. وإليه ذهب أبو العباس المبرّد من أصحابكم»(٢٦). وسوف نتعرض لها عند الحديث عن المسائل.

أمّا المصطلحات التي وضعها الكوفيون

فهي للتسهيل والتوضيح أو لمجرد المخالفة، لأنّ المصطلح المقابل له عند البصريين كان بتسمية موفقة، وأنّ الكثير منها قد استعمله الخليل أو سيبويه بالصيغ نفسها كالمرسل والخفض والنعت وغيرها، أو بصيغة فعلية يُشرح بها المقصود (٢٧).

ومن ذلك:

– تسميتهم التمييز (تفسيرا)، والصفة (نعتا)، والمضارع والأمر (مستقبلا)، والعطف (نسقا)، والنفي (جحدا)، والمصروف (ما يجرى)، وغير المصروف (ما لا يجرى)، والجر (خفضا) والضمير (مكنيا أو كناية)، والساكن (المرسل)، وحروف الجر (حروف الصفات أو حروف الإضافة)، والحال (قطعا)، والمفعول المطلق وله وفيه ومعه (أشباه مفاعيل)، والظرف (محلا أو صفة)، والبدل (ترجمة وتبيينا)، والحروف (أدوات)، وضمير الشأن (المجهول)، وضمير الفصل (العماد)، وحروف الزيادة (حروف الصلة أو الحشو)، ولام الابتداء (لام القسم)، ولا النافية للجنس (لا التبرئة)، والمبني للمجهول (ما لم يُسمّ فاعله)، والنداء (الدعاء) والشرط (الجزاء)، والمصدر المؤول (الاسم المحوّل)، ومما يؤكّد أنهم ذهبوا إلى أكثر تسمياتهم هذه لمجرد الخلاف أنهم عكسوا ألقاب الإعراب والبناء،

ومن المصطلحات التي لم يكن لها ما يقابلها عند البصريين (الخلاف) وهو عامل معنوي طبّقوه في نصب المفعول معه – والظرف الواقع خبرا – والفعل المضارع المنصوب بعد الواو أو الفاء المسبوقين بنفي أو طلب، وبعد أو، كذلك في المضارع المرفوع في مثل قول الشاعر:

على الحكم المأتى يوما إذا قضى قضيته ألا يجـــور، ويقصـــد

وحمل سيبويه هذا على الانقطاع عما قبله، والابتداء[٢٨]، و(أحرف الصرف) وهي الواو، والفاء، و أو التي ينتصب بها الفعل المضارع عند الكوفيين، أمّا عند الفرّاء فالناصب له هو (الصرف) أو (الخلاف)، ويبدو أنهم استوحوا هذا العامل من كلام الخليل عن الاستثناء،فكان يقول : «إنّما نصب المستثنى هنا، لأنّه مخرج ممّا أدخلت فيه غيره»[٢٩]، وسيبويه في غير الاستثناء ما يشبه هذا في الأبواب التي عقدها للحال والتمييز كباب (ما ينتصب، لأنه قبيح أن يكون صفة)، وباب (ما ينتصب لأنه ليس من اسم قبله، ولا هو هو)، والباب الذي عقده لما (ينتصب على انه ليس من اسم الأول، ولا هو هو)قال بعد الانتهاء منها : «اعلم أنّ جميع ما ينتصب في هذا الباب ينتصب على أنّه ليس من اسم الأوّل ولا هو هو»[٣٠]، و(الفعل الدائم) ويعنون به اسم الفاعل واسم المفعول العاملين عمل فعليهما، وهو يقابل عندهم الفعل الماضي والفعل المستقبل الشامل لفعلي المضارع والأمر في اصطلاح البصريين.

و(التقريب) ويعنون به اسم الإشارة المتبوع بمعرفة وجاءت بعد المعرفة نكرة منصوبة فيعمل اسم الإشارة عمل (كان) وأخواتها[٣١].

ولم ينتشر من المصطلحات التي تداولوها إلاّ الأدوات والنصب وعطف النسق والصلة ولا التبرئة، ويبدو لنا عدم استقرار المصطلح ؛ فللمسمّى عندهم أكثر من مصطلح، وأنهم لم يعدّوا نصب المستثنى بإلاّ من الخلاف، والماثلة بينهما أوضح من المواقع التي قال فيها الكوفيون النصب بالخلاف[٣٢]، وهذا (ثعلب) [٣٣] يشرح مصطلح (التقريب)، «و يمثّل له ويعلّل ويكرّر الكلام عليه في أكثر من موضع»[٣٤].

ومن الجدير بالذكر أنّ الدكتور مهدي المخزومي اتّهم البصريين بإغراقهم الفلسفي باستخدامهم مصطلح (الظرف)؛ إذ يقول: «ومجافاة الكوفيين للتأثر بالفلسفة ظاهرة في هذا المصطلح فلم تعرف العربية كلمة (الظرف) بهذا المعنى، لأنّ الظرف فيها (الوعاء) واعتبار مدلولات هذه الألفاظ أوعية للموجودات غني بالتأثر الفلسفي»[٣٥]، إلاّ

أنّني وجدت ابن الخباز (ت ٦٣٧ هـ) يذكر تسمية الكوفيين (الظرف) (الوعاء) قائلا: «والكوفيون يسمّونه المحلّ والوعاء»[٣٦]، وهذا يؤكّد أنّ ما كيل من التّهم للبصريين بسببه نجده أيضا عند الكوفيين.

هذا يتّضح لنا مما تقدّم أنّ المنهج الكوفي اتّسم باتّساع السماع وعدم تشدّدهم في الرواية فأدّى ذلك إلى اتّساع القياس، ووضع أقيسة جديدة معتدّين فيها بالشاذ، أو النقل لا العقل فخفّ بذلك التأويل والتقدّير، ووضعوا مصطلحات خاصّة عُرفوا بها، وأخرى وضع لها البصريون أسماء إلاّ أنّ الكوفيين سمّوها بأسماء جديدة، وأخرى استوحوها منهم، وأنّهم خالفوا هذا المنهج في مواضع، وقد بدأت ملامحه قبل الكسائي والفرّاء ثمّ تمّ له النضج على يديهما في بغداد واستدللت على ذلك بأدلّة هي:

١- عدد من الآراء النحوية واللغوية للنحاة الكوفيين قبل الكسائي وردت في كتاب سيبويه وغيره.

٢ - تسمية (الكوفيين) أُطلقت على النحويين قبل الكسائي والفرّاء، وأوّل ذكر لها ورد في كتاب سيبويه، ثم كتاب المقتضب للمبرّد. . . .

٣ - أقوال القدماء في كتب الطبقات والتأريخ التي تؤكّد رئاسة الرؤاسي للنحو في الكوفة وهو شيخ الكسائي والفرّاء، وأنّ العلم كان قائما في الكوفة قبل الكسائي، من ذلك قول أبي الطيب : «فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريبا»[٣٧].

٤ - عدم أخذ النحويين البصريين من الكوفيين قبل الكسائي والفرّاء ؛ لتشكّكهم بما يروونه أو اتهامهم بالكذب والوضع، قال يونس في حماد الراوية (ت ١٥٥ هـ): «كان يكذب، ويلحن، ويكسر»[٣٨]، فلم يأخذ بصري عنهم إلاّ أبا زيد عن المفضل الضبّي (ت ١٦٨ هـ) [٣٩]، وهذا الموقف يدلّل على ترخّص الكوفيين في السماع قبل الكسائي والفراء، وهو عماد منهجهم .

الهوامش :

١) الدرس النحوي في بغداد : ٦

٢) المصدر نفسه

٣) المقتضب : ٢ / ١٥٥

٤) الدرس النحوي في بغداد : ٢١٥

٥) ينظر المدارس النحوية : ٢٦٩ ـ ٢٧٠

٦) ينظر الكتاب : ٣/ ٥٤ و ٤/ ٤٠٩

٧) المصدر نفسه : ٢/ ٣٩٩ و٤/ ٤٠٩

٨) الكتاب : ٤/ ٤٠٩

٩) ينظر معاني القرآن للفراء : ٢/ ٧٩ و ٣/ ٩ و ١٠٢، والمذكر والمؤنث لأبي بكر الأنباري: ١٢٤، والقطع والائتناف لأبي جعفر النحاس : ٧٧٥، وأنباه الرواة : ٣/ ٢٨٩ـ ٢٩٥.

١٠) أبو جعفر الرؤاسي نحوي من الكوفة د. عبد الله الجبوري : ٢٣.

١١) ينظر الدرس النحوي في بغداد : ٢١٠، والمدارس النحوية د. شوقي ضيف :١٥٣ ـ ١٥٤، وظاهرة الشذوذ في النحو العربي :٢٣١، والمدارس النحوية د. خديجة الحديثي:١٦٢، والمدارس النحوية بين أيدي الدارسين د. نعمة رحيم العزاوي :٧.

١٢) ينظر مقدمة الإنصاف: ٤٠-٤١، عن الدرس النحوي في بغداد: ١٠١.

١٣) ينظر ضحى الإسلام : ٢/ ٢٩٦

١٤) أبو زكريا الفراء : ٣٧٦

١٥) تاريخ الأدب العربي : ٢/ ١٩٦

١٦) الفهرست : ٩٢

١٧) في أصول النحو : ٩٣

١٨) نظرات في اللغة والنحو : ١١

١٩) ينظر المدارس النحوية د. شوقي ضيف : ١٦٤

٢٠) ينظر أبو زكريا الفراء : ٣٧٠

٢١) ينظر مدرسة البصرة النحوية : ٢٥٠

٢٢) المدارس النحوية د. شوقي ضيف : ١٦٤

٢٣) مدرسة الكوفة : ١٦٨

٢٤) ينظر الدرس النحوي في بغداد : ٧٣ ـ ٧٤

٢٥) الإيضاح : ١٣١ ـ ١٣٢

٢٦) الإنصاف المسألة(٩٧): ٢/ ٣٦٣

٢٧) ينظر المدارس النحوية د. خديجة الحديثي : ١٦٧

٢٨) ينظر الكتاب : ٣/ ٥٦

٢٩) الكتاب (هارون) : ٢/ ٣٣٠

٣٠) المصدر نفسه : ٢/ ١١٧ وينظر : ١١٨ و١٢٠ و ١٢١

٣١) ينظر مدرسة الكوفة :٣٣٧ ـ٣٦٠والمدارس النحوية د. شوقي ضيف :١٦٦ ـ ١٦٧ والمدارس النحوية د. خديجة الحديثي ١٦٧ـ١٧١و٢٩٤ـ٢٩٥

٣٢) ينظر مدرسة الكوفة : ٣٤١

٣٣) ينظر مجالس ثعلب : ١/ ٤٢ ـ ٤٤ و ٢ / ٣٥٩ ـ ٣٦٠

٣٤) المدارس النحوية د. خديجة الحديثي : ٢٣٧

٣٥) مدرسة الكوفة : ٢٥٤

٣٦) الغرّة المخفية في شرح الدرّة الألفية : ١/ ٢٥٨

٣٧) مراتب النحويين : ٩٠

٣٨) العربية، يوهان فك : ٦٣

٣٩) ينظر الفهرست : ٨٧